المقتطف

الجزء السابع من السنة الثالثة عشرة

١ نيسان (ابريل) سنة ١٨٨٩ = ١ شعبان سنة ١٣٠٦

الانانيَّة والغيريَّة

لا تجُدْ بالعطاء من غير حقٍّ ليس في منع غير ذي الحقِّ بُخلُ
انما الجود ان تجودَ على مَن هو للبذل منكَ والجود اهلُ

لما كان الانسان في حال الفطرة والبداوة دعاهُ حبُّ النفس والولد الى مزاحمة ابناء نوعهِ ومغالبتهم على ما في ايديهم من ضروريات العيش شأن نبات الحقل وسمك البحر ووحش البريَّة فعاش الغالبُ وتوالد وضعف المغلوب وانقرض . وهذا اي سعي الانسان لنفسهِ وإيثارها على غيرها دعوناهُ بالانانيَّة نسبةً الى انا مقابلين في ذلك كتَّاب الافرنج الذين يدعونهُ بالاغوزم نسبة الى اغو ضمير المتكلم

وقد كانت الانانيَّة ضروريَّةً لحياة الانسان يوم كان ضعيفًا لا ناصر لهُ الاَّ نفسهُ ولا دافع عنهُ الاَّ قوَّة ذراعيهِ فآثرها قرونًا كثيرةً الى ان رسخت فيهِ وصارت خلقًا من اخلاقهِ ولم تزل آثارها ظاهرة فيهِ الى يومنا هذا

ولما جاءت الاديان علَّمت الناس ان ينظروا الى معبودهم وخدَّامهِ قبل ان ينظروا الى نفوسهم وان يتصدَّقوا على المسكين ويغيثوا الملهوف ويصطنعوا الناس بالمعروف . فتركوا الانانية واستبدلوها بالغَيْريَّة اي بالسعي للغير فظهر الكرماء الفضلاء الذين يقولون كما قال ابن حبيب التهمي

اذا ما رفيقي لم يكن خلف ناقتي لهُ مركبٌ فضل فلا حملت رحلي

ولم يكُ من زادي له نصف مزودي فلا كنتُ ذا زادٍ ولا كنتُ ذا رحلِ
شريكين فيما نحن فيهِ وقد ارى عليَّ له فضلاً بما نال من فضلي

وبالغوا في الجود والكرم حتى آثروا غيرهم عليهم كما قال بعضهم

ابيت خميص البطن غرثان طاويًا واوثر بالزاد الرفيق على نفسي
وامنحهُ فرشي وافترش الثرى واجعل قرّ الليل من دونهِ لبسي

وكما قال الآخر

يبيتون في المشتى خماصًا وعندهم من الزاد فضْلات تُعدُّ لمن يُقرَى
اذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا لهُ من النار في الظلماء الوية حمرًا

وعندهم ان الانسان بكرمهِ وان المال ما ينفقهُ الانسان لا ما يتركهُ لاولادهِ كما قال بعضهم

ألا انما مالي الذي انا منفقٌ وليس لي المال الذي انا تاركهْ

وتوالى ذلك على البشر تعليمًا وعملاً ولاسيما في العصور الاخيرة فانشئت بيوت الفقراء لاطعام الجياع واكساء العراة ومداواة المرضى واغاثة الملهوفين وتربية المنبوذين، وعدّ ذلك من الفضائل التي يرضى بها الله ويجازي اصحابها خيرًا

ومما يقف الحكيم عندهُ مبهوتًا ان كل الاحوال التي تقلّبت على نوع الانسان قد آلت لتقويتهِ جسدًا ونفسًا وان الانسان منقاد بحكم الضرورة الى مجاراة هذه الاحوال ولكنهُ لا يقف على حد النفع منها بل يجتازهُ الى حدّ الضرر كأنهُ مدفوع بقوة الاستمرار الطبيعية حتى اذا شعر بالضرر انتبه الى نفسهِ فعدل عن خطتهِ الى اقوم منها . والنفع والضرُّ يحكمان حكمًا مطلقًا في تغيير شؤونهِ فالانانيّة اي ايثار الانسان نفسهُ على غيرهِ كانت ضروريّة في اول تاريخ الانسان ولولاها ما تغلب على عوادي الطبيعة ولا تعلّم الحرْص والاهتمام بالمستقبل وذخر الغذاء الى حين الحاجة واعداد الآلات والأدوات لما يفاجئهُ من الطوارىء . ولولاها ما تقوّى نوع الانسان ببقاء القوي وهلاك الضعيف والعاجز . ولكن لو أُطلق العنان للانانيّة وخلا لها الجوّ ولم يعارضها معارض لآلت الى هلاك النوع كلهِ حالما تضيق بهِ الارض وتقلُّ اسباب المعيشة لان القوي يستسهل قتل غيرهِ على الترحُّل في الارض واجهاد النفس في استدرار خيراتها

وقبل ان تبلغ الانانيّة من الناس هذا المبلغ طلبوا الاجتماع وتوحيد المصلحة ولو في بعض الامور وجاءهم الوازع الديني يأمرهم بان يفضّلوا حقوق معبودهم وخدّامهِ على حقوق انفسهم وان يتصدّقوا على الفقراء بل ان يبيعوا ما لهم ويعطوا صدقةً . وخرج

دعاة الاديان يدعون الناس الى العمل بالمعروف وانكار النفس واستئصال الانانيّة والتصدّق على جميع الناس من غير تمييز بينهم تشبهًا بالخالق الذي يشرق شمسهُ على على الاخيار والاشرار ويمطر على الصالحين والطالحين فراعوا ذلك غير ملتفتين الى ان الخالق سبحانهُ قضى بالموت جوعًا على من لا يسعى في طلب رزقهِ . ونتج من ذلك كلهِ ان ذمّت الانانيّة وضعفت ومُدِحت الغيريّة وقويت وكثر الذين يؤثرون على انفسهم ولو بهم خصاصةٌ وشاع ذلك حتى بين عرب البادية. روى ابن كتيبة ان كعب بن مامة الايادي خرج في قفل معهم رجل من بني النمر وكان ذلك في حرّ الصيف فضلوا وشحَّ ماؤهم فكانوا يتصافنون الماء وذلك ان يطرح في القعب حصاةٌ ثم يصبُّ فيهِ من الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيشرب كل واحد قدرَ ما يشرب الآخر ولما نزلوا المشرب ودار القعب بينهم حتى انتهى الى كعب رأى الرجل النمري يحدُّ نظرهُ اليهِ فآثرهُ بمائهِ وقال للساقي اسقِ اخاك النمري فشرب النمري نصيب كعب من الماء ذلك اليوم. ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر فتصافنوا بقيَّة مائهم فنظر اليهِ كنظرهِ أمس وقال كعب كقولهِ امس . وارتحل القوم وقالوا يا كعب ارتحل فلم يكن لهُ قوة للنهوض وكانوا قد قربوا من الماء فقالوا لهُ ردْ يا كعب إنك وارد فعجز عن الجواب . ولما آيسوا منهُ خيموا عليهِ بثوب يمنعهُ من السبع أن يأكلهُ وتركوهُ مكانهُ فمات فذهب ذلك مثلاً في تفضيل الرجل صاحبهُ على نفسهِ

ونوادر الذين يؤثرون على انفسهم كثيرة حتى في عصرنا هذا . فحصلت الغاية المقصودة وهي اضعاف الانانيّة وتقوية الغيريّة اي السعي لاجل الغير. ولكن ما لبثت الغيريّة حتى تجاوزت حدَّ النفع كما رأيت وبلغت حدَّ الضر واضرارها شائعة في المشرق والمغرب فالشرقيون لا ينهرون سائلاً ولا يردُّون ضيفًا واهل البيوتات الكبيرة منهم يعاملون عبيدهم كما يعاملون اولادهم وكم من عبد تزوج في بيت سيدهِ ولم يزل عالةً عليهِ هو وزوجتهُ واولادهُ وكم من جارية تزوجت ولم تزل تعيش من بيت سيدها هي واولادها وكم من رجل يولم الولائم الفاخرة مدفوعًا الى ذلك بغريزة الكرم التي فيهِ وهو لا يجد في يدهِ ما ينفقهُ على تعليم ابنهِ والغربيون مع اشتهارهم بالاقتصاد والتدبير ينفقون على فقرائهم نفقات طائلة زادت عدد الفقراء واضعفت عزائمهم عن العمل واذا قصدهم احد الدجالين وادَّعى انهُ يجمع المال لغرض ديني تهافتوا على البذل لهُ غير فاحصين ولا مدققين كأن الغاية هي مجرد العطاء ولو آل الى ضرر المعطى لهُ

وقد سار الانسان في هاتين الطريقين فمرَّ اولاً على طريق الانانيَّة التي قوته على عوادي الطبيعة ثم مرَّ على طريق الغيريَّة التي اضعفت طموح نفسهِ وجعلته يشرك اخاهُ بخيراتهِ ويؤثرهُ على نفسهِ . والآن قام الادباء والحكماء يعلمون الناس ان يسيروا في طريق متوسطة بين الطريقين وهي ان يسعوا في خير انفسهم سعياً لا يضرُّ بغيرهم ويسعوا في خير غيرهم سعياً لا يضرُّ بانفسهم اي ان يجتهدوا في مصلحة انفسهم ويجودوا ولكن على من يستحق جودهم وينتفع بهِ ولا يُضَر وما احسن ما قالهُ طاهر بن عبد القدوس

انما الجود ان تجودَ على مَن هو للبذل منكَ والجود اقلُّ

وقد جرَّب الانسان الطريقين المتقدمين وذاق حلوها ومرها وعرف نفعها وضرها والحكيم من رأى العبرة فاعتبر . فاذا كان سعينا لانفسنا لا يضرُّ احداً فالسعي واجب واذا كان منهُ ضرر فالضرر يزال ويعدل في السعي عن وجههِ الاول الى وجهٍ آخر . واذا كانت الصدقات تنفع مَن نتصدَّق عليهِ بها وجبت علينا واذا كانت تضرُّهُ وجب الاقلاع عنها اي ان كلاًّ من الانانيَّة والغيريَّة نافع وضارّ فالانانيَّة نافعة ما دام الانسان يقصد نفع نفسهِ بدون ان يضرَّ بغيرهِ والغيريَّة نافعة ما دام يقصد نفع غيرهِ بدون ان يضرَّ بنفسهِ . ويمكن جمع ذلك في قولنا انهُ يجب على الانسان ان يسعى جهدهُ في نفع نفسهِ ونفع ابناء نوعهِ

ومن المسائل المعضلة التي اشغلت الكتَّاب في هذا العصر بل اشغلت اكبر الدول مسئلة الفقراء وكيفيَّة التصدُّق عليهم حتى يستغنوا عن السؤال . ويراد بالفقراء هنا كل الذين ليس عندهم كفافهم اما لكسلهم او لاسرافهم او لعدم مهارتهم في اعمالهم وهذا يخرج المرض والمجانين والصغار المقطوعين . والفقراء الذين اردناهم بقولنا اكثر المتسولين والذين نذروا النذر الاختياري والذين يضجون في الاسواق يطلبون الصدقة من مال الله كأنَّ مال الله لم يُوقف الاَّ على اهل البطالة والكسل والذين اتخذوا الكدية حرفةً . وما ذكرهُ الحريري في هذا الموضوع مزل يشف عن جدٍّ وتجاز ناطق بالحقيقة قال في مقامتهِ الساسانيَّة بلسان السروجي وهو يوصي ابنهُ " وكنتُ سمعت ان المعايش امارة وتجارة وزراعة وصناعة فارست هذه الاربع لانظر ايها اوفق وانفع فما احمدتُ منها معيشة ولا استرغدتُ فيها عيشة " ثم وصفها جميعها بالعيب وفضَّل الكدية عليها فابن ذلك من اليونانيين القدماء الذين كانوا يفتخرون بان لم يكن بينهم متسوّل والمصريين القدماء الذين كانوا يصوّرون الصدقة بصورة ولد يقدم العسل لنحلة مقطوعة الجناحين دلالة على ان الصدقة لا تجوز الاَّ على المجتهد اذا عرض لهُ ما يمنعهُ عن العمل كالنحلة المقطوعة الجناحين

وقد وجد الباحثون في هذا الموضوع ان التصدُّق على الفقراء يزيد عددهم وان الجانب الاكبر من الصدقات لا يصل الى الذين يحتاجونهُ حقيقةً بل الى الذين يفوقون غيرهم في التظاهر بالفاقة والاحتياج . وان العلاج الوحيد لمنع التسوُّل هو كساد بضاعة التسوُّل فانهُ اذا وجد المتسوّل ان لا فائدة لهُ من هذه الحرفة الشنعاء عدَل عنها والتجأ الى حرفة أُخرى . ومَن يتصدَّق على متسوّل يضرُّ بالهيئة الاجتماعية اكثر مما يضرُّ بها المتسوّل نفسهُ

وجُرّب منعُ الصدقات في مدينة بروكلين احدى مدائن اميركا فبطل التسوُّل وقل عدد الفقراء كثيرًا وذلك ان اهالي تلك المدينة انفقوا مئة وخمسين الف ريال سنة ١٨٧٧ على ٤٦٣٥٠ فقيرًا وفي السنة التالية لم يدفعوا لهم شيئًا بل احالوهم على دور الفقراء وكان في هذه الدور ١٢٧١ فقيرًا سنة ١٨٧٧ فزاد عددهم قليلاً في السنة التالية ثم اخذ يتناقص رويدًا رويدًا حتى بلغ ١١٧١ فقيرًا سنة ١٨٨١ مع ان عدد اهالي المدينة كان يزيد ١٨ الفًا كل سنة . فاين اولئك الفقراء الذين كانت تنفق المدينة عليهم مئة وخمسين الف ريال في السنة . والجواب انهم تركوا التسوُّل حرفة آل ساسان واحترفوا حرفًا أُخرى شريفة تمونهم وتكفيهم فانتفعوا هم وزال حمل ثقيل عن عاتق الاهالي

واهالي مدينة كنفلند كانوا يتصدقون بسبعين الف ريال على ٢٢٨٦ عائلة من عيال الفقراء وذلك سنة ١٨٧٧ وفي تلك السنة سنوا قانونًا وهو ان لا يتصدَّقوا على احد اذا كان قادرًا على العمل بل يقدموا لهُ عملاً ويقدموهُ اجرتهُ كما يستحق فلم يبقَ من العيال التي طلبت الصدقة سنة ١٨٨٠ الاَّ ١٢٠٠ عائلة وبلغت الصدقات التي اعطيت لهم تلك السنة ١٧٠٠٠ ريال فقط

ولو جرت كل المدن هذا المجرى لاجبرت المتسولين ان يتركوا عادة الحيوانات الحلمية التي تغتذي بدم غيرها ويجتهدوا على العمل والكسب الحلال . اما الذين لا يمكنهم العمل اما لحداثة سنهم او لخلل في عقولهم او لداء في ابدانهم او نحو ذلك من الاسباب فلا تعفى الهيئة الاجتماعية من القيام باحتياجاتهم

—ooo-ooo—

ديانة الحثيين وكتابتهم

نجلس على فراش وثير في مركبة تجارية تنطوي بنا صدور الارض على الاعجاز ولا يمضي الاَّ بضع ساعات حتى نبلغ المكان الذي نقصدهُ بلا تعب ولا مشقة . ولا يخطر ببالنا